سنة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب فخرج الملك للعيد فقامت امرأته فشيعته وكان بها معجبا ولم تكن تسأله فيما مضى فلما أن شيعته قال الملك : سليني فما تسأليني شيئا إلا أعطيتك قالت : أريد دم يحيى بن زكريا .

قال لها : سليني غيره .

قالت : هو ذاك .

قال : هو لك فبعث جلاوزتها إلى يحيى وهو في محرابه يصلي وأنا إلى جانبه أصلي فذبح في طست وحمل رأسه ودمه إليها .

فقال النبي صلى ا عليه وآله : فما بلغ من صبرك ؟ قال : ما انفتلت من صلاتي فلما حمل رأسه إليها ووضع بين يديها - فلما أمسوا - خسف ا بالملك وأهل بيته وحشمه فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل : لقد غضب إله زكريا لزكريا فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا فخرجوا في طلبي ليقتلوني فجاءني النذير فهربت منهم وإبليس أمامهم يدلهم علي : فلما أن تخوفت أن لا أعجزهم عرضت لي شجرة فنادتني فقالت : إلي إلي وانصدعت لي فدخلت فيها وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي والتأمت الشجرة وبقي طرف ردائي خارجا من الشجرة وجاء بنو إسرائيل فقال إبليس : أما رأيتموه دخل هذه الشجرة ! هذا طرف ردائه دخل به الشجرة فقالوا : نحرق هذه الشجرة فقال إبليس : شقوه بالمنشار شقا .

قال : فشققت مع الشجرة بالمنشار .

فقال له النبي صلى ا عليه وآله : يا زكريا هل وجدت له مسا أو وجعا ؟ قال : لا إنما وجدت تلك الشجرة جعل ا روحي فيها " .

وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه أن زكريا هرب ودخل جوف شجرة فوضع على الشجرة المنشار وقطع بنصفين فلما وقع المنشار على ظهره أن فأوحى ا " يا زكريا إما أن تكف عن أنينك أو أقلب الأرض ومن عليها " فسكت حتى قطع نصفين .

وأخرج أحمد في الزهد وابن عساكر عن يزيد بن ميسرة قال : كان طعام يحيى بن زكريا الجراد وقلوب الشجر وكان يقول : من أنعم منك يا يحيى ؟ طعامك الجراد وقلوب الشجر .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن عساكر عن أبي إدريس الخولاني وابن المبارك وأحمد في الزهد وأبو نعيم عن مجاهد قال : كان طعم يحيى بن زكريا العشب وإن كان ليبكي من خشية ا حتى لو كان القار على عينه لأحرقه ! ولقد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه